كيف نزرع الثقة بالنفس في نفوس أبنائنا ؟

تاريخ النشر في جريدة أخبار الخليج: 30 أغسطس 2015

بقلم: د. زكريا خنجي

جاءني صوتها عبر التليفون مرتجفًا بعد أن نشرنا في الأسبوع الماضي مقالا عن الثقة بالنفس «كيف تبني ثقتك بنفسك؟» وقالت في نهاية حديثها «إن ما يثير دهشتي أن ابني ذكي جداً بشهادة الجميع عندما يكون في البيت، ولكن لا أدري عندما يذهب إلى المدرسة ويقدم امتحانًا وخاصة في مادة الحساب - الرياضيات - فإنه يعجز عن حل أبسط المسائل، وعادة يختلق الاعذار عندما يكون لديه اختبار حتى لا يذهب إلى المدرسة، فيوم معدته تؤلمه، ويوم عنده صداع، لقد احترت ماذا أفعل معه؟».

ربما لا يعد هذا الكلام مستغربًا من الكثير من الأمهات وأرباب الأسر، فالأطفال وخاصة في السنوات المبكرة يحتاجون إلى رعاية خاصة، فالطفل في هذه المرحلة في بداية التشكيل والتكوين، حتى عقله لم ينضج في تقدير الخطأ والصواب، فنراه يغضب لأسباب نعتقد أنها سخيفة ولكنه يراها عظيمة، ونسمعه يكذب ويسرق والكثير من تلك التصرفات التي نشعر أنها غير مسئولة، وهنا يقع على أولياء الأمر العبء الأكبر في تصحيح هذه القيم وخاصة في تلك المراحل المبكرة من حياة الطفل، ولكن كما نقول دائمًا لا يمكن أن نربي أطفالنا بالخوف والإكراه

وإنما يجب أن نزرع في عقولهم تلك القيم والأخلاقيات التي تمكنهم في المستقبل ليبلغوا مراحل السمو الاخلاقي.

رغب أحد الباحثين بدراسة تأثير المجتمع الخارجي على التحصيل والثقة بالنفس في التحصيل، فجاء الباحث وأخبر المعلمة أنه قد اختار عينتين عشوائيتين من صفها، حيث إنه اختار العينة الأولى من الطلاب الذين يعدون من ذوي الذكاء المحدود لذلك فإنه من المؤكد أن يكون أداؤهم بالتالي متدنياً، بينما أفراد العينة الثانية قدراتهم عالية، لذلك فإنه من المتوقع أن يحققوا مستوى عاليا من التحصيل، ولكن في الحقيقة لم يقم الباحث بالاختيار وفق قدراتهم وذكائهم، فهو لا يعرف مطلقًا القدرات الحقيقية لهاتين المجموعتين، ولكنه أراد من المعلمة أن تتعامل معهم وفق هذه النظرية من غير أن تشعر، فماذا وجد ؟

عندما عاد الباحث إلى نفس المدرسة في نهاية العام الدراسي؛ وجد بالفعل أن أداء المجموعتين كان متماشياً مع توقعاته التي نقلها الى المعلمة، ويبدو أن المعلمة بدورها قد صدقت هذا الكلام وترجمته من دون أن تشعر من خلال سلوكها مع طلابها الذين التقطوا هذه الرسالة بدورهم وصدقوها وسلكوا سلوكًا يتماشى مع هذه التوقعات، وبذلك تحقق التوقع، وهو أن أبناءنا يتأثرون وخاصة فيما يتعلق بالقيم من المجتمع الخارجي، لذلك يجب أن نضع توقعات عالية لأبنائنا وأن نثق بقدراتهم حتى تؤثر على مفهومهم لذواتهم بصورة إيجابية وينعكس بالتالي على أدائهم في البيت أو المدرسة.

ومن المعروف أن الأطفال في هذا السن المبكرة يتميزون بمجموعة من الخصائص العقلية والاجتماعية والوجدانية والانفعالية حيث إن الطفل في هذه المرحلة يعمل على تكوين علاقات اجتماعية مع الآخرين ويفضل اللعب مع فئات قليلة العدد، كما أنه يميل إلى الزهو والخيالات ويغلب عليه حب الظهور، ويبدأ اتجاه التعاون في هذه المرحلة في الظهور عند الطفل، كما أنه في هذه المرحلة تغرس في نفوس الأطفال الكثير من القيم والاتجاهات الأخلاقية والاجتماعية، وفيها أيضًا تتعدد مفاهيم الصواب والخطأ والخير والشر وذلك عن طريق الآباء، ويزداد تفاعل الطفل في هذه المرحلة مع الوسط المحيط ويكون مستعداً لتعلم النظم التي تجهزه لكي يكون عضواً في المجتمع ويكتسب العادات والتقاليد الموجودة في هذا المجتمع، وكذلك يصبح أكثر قدرة على أن يضع في اعتباره شعور الآخرين ويقبل أهداف الجماعة.

ومن الخصائص العقلية التي تميز تلك المرحلة هي أن الطفل في هذه السن المبكرة يكون عاجزًا وضعيفًا ولكن سرعان ما يتشبث بالحياة وسرعان ما يبتكر حركات لاكتساب مهارات لا حصر لها، وفي غضون أسابيع قليلة تظهر صفاته الخاصة التي تجعل منه شخصية منفردة، ويتميز بحب الاستطلاع حيث تتسع مداركه فيكتسب الطفل خبرات ومعلومات عن العالم الخارجي، ويكون ذلك عن طريق استعمال الحواس وربطها ببعضها مثل اللمس والنظر والسمع، وكذلك عن طريق التفكير في حل مشكلاته اليومية فهو يمسك الأشياء بيديه ويفحصها وتساعده عملية المشي على الوصول إلى أشياء كانت بعيدة عن متناول

يده، وذلك يشبع رغبة الطفل في المعرفة واستطلاع الأشياء من حوله. وفي هذه المرحلة من النمو يكون لديه استعداد كبير للاستجابة للمثيرات، لذلك فهو يحتاج إلى توجيه سليم من خلال أنواع النشاط والرعاية التربوية الموجهة له. وعلى ذلك وجد العلماء أنه يمكن أن نزرع في عقول ووجدان الأطفال في هذه السنين المبكرة من حياتهم قيمة «الثقة بالنفس»، ويتم ذلك عبر خطوات مأخوذة الأحرف الأولى من مصطلح «الثقة» كالتالي:

- أ: الاستقلالية.
- ل: لغة التواصل الصحيحة.
- ث: الثبات في المعاملة.
- ق: قبول الطفل كما هو.
- ة (ت): تشجيع الطفل.

فلنحاول أن نسلط بصيصا من الضوء على هذه النقاط.

أولاً: الاستقلالية: منذ نعومة أظفارهم ونحن - كأولياء أمور - نضع الطعام في فيههم حتى لا تتسخ ملابسهم، نجلسهم على المرحاض، ونغسل أيدهم، وربما نجلس معهم بالساعات حتى نحل واجباتهم، ونمسك أيديهم حتى ندخلهم الروضة والمدرسة، وإن واجهته مشكلة مع أحد زملائه جرينا إلى الناظرة حتى نقدم الشكوى.

وإن كبروا قليلاً فإننا نفتخر أنهم مازالوا يعتمدون علينا في اختيار ملابسهم وتحقيق رغباتهم وحل مشاكلهم، لأن هذا يشعرنا بوجودنا ومكانتنا عندهم، وإن بدأ يحاول أن يستشعر بذاته وحاول أن يحقق رغباته بنفسه، أو أن شعرنا أنه يحاول أن يوضح لنا أنه قادر على الاستقلال بذاته، شعرنا نحن - كآباء - بالإهانة، فكيف يتمرد هذا الطفل علينا وعلى قدراتنا في الاختيار، فنحن نختار له الأفضل.

هذا الأسلوب يحطم ذات الطفل، وبالتالي ثقته بنفسه، فيظل تابعًا، عبداً لا يمكنه أن يتخذ قرارا بنفسه مهما حاول ذلك في المستقبل.

ثانيًا: لغة التواصل الصحيحة: إن الطفل لا يتكلم بالمنطق الذي أنت تتكلم فيه، فللطفل منطق آخر أبسط كثيرًا من طريقة كلامك وحواراتك، ربما لا يعجبك منطقه ولا أسلوب حديثه، ولكن من المفروض أن تصغي له حتى ينتهي من حديثه، ولا تستعجله ولا تجرجره إلى المنطقة التي تحب أن تسمع، وإنما حاول أن تستمع وأن تصغي له، فإن جاءك الطفل يشتكي أن أحد زملائه ضربه أو أهانه لا تغضب وتلقي اللوم على الطفل وتقول له «أنت جبان، أنت مشاكس، أنت عنيد» وإنما دعه يتكلم إلى النهاية، ثم أساله - مثلاً - «ماذا تنوي أن تفعل الآن؟» أترك له المجال ليقرر، وربما تساعده بطريقة أو بأخرى في اتخاذ قرار، ولكن لا تسهم في أن تعبئ الأجواء بالمشاحنات.

ثالثًا: الثبات في المعاملة: إن التناقص والاختلاف في أسلوب المعاملة بين الأبوين في تربية الطفل يجعل هذا الطفل لا يعرف ما المطلوب منه؟ وكيف من المفروض أن يتصرف في الكثير من المواقف، فالأم - مثلاً - تقدم له كل الحنان والدلال ولكن الأب من جهة أخرى لا يتعامل معه إلا بأسلوب الرفض والإهانة.

قال لي أحد الأخوة «كنت أدرس في مدرسة خاصة، وفي المدرسة نتعامل مع بعضنا بعضا بكل هدوء واحترام، ويمكن أن نعاقب إن تكلمنا ببعض الألفاظ النابية، ولكننا عندما نصل إلى البيت ونلعب في الأحياء مع أصدقاء الحي، لا نترك كلمة نابية إلا ونقولها لبعضنا بعضا».

فلنتصور هذا التناقض في التعامل والتفكير وزرع القيم.

رابعًا: قبول الطفل كما هو: من الأساليب التربوية المهمة التي تعزز ثقة الطفل بنفسه أسلوب قبول الطفل كما هو في الواقع وليس بالصورة المثالية التي نتمنى أن يكون عليها، ومن جانب آخر فإن الطفل يتميز عن غيره بفرديته فهو فرد وله قدرات وإمكانيات وهبها اللّه له يستطيع من خلالها - إن تمت تنميتها بالطريقة الصحيحة - أن يحقق الكثير، فلا يمكن أن نقارنه بالآخرين، وإنما يجب أن نقارنه بمراحل حياته وفترات عمره، والتغيرات التي تحصل له بين الفينة والأخرى.

كما يجب أن نفصل بين ذات الطفل وأفعاله؛ فقد نكره بعض الأفعال التي يقوم بها الطفل ولكن يجب ألا تمس ذات الطفل بسوء، كأن نقول

للطفل عندما يقصر في أدائه: أنت ولد ذكي فكيف لم تقم بأداء المطلوب منك؟ أو: أنا أحبك ولكن لا أحب ما قمت به من تصرف. فالحقيقة التربوية تقول إن الطفل لا يمكن أن يطرأ تحسين على سلوكه السيئ إذا فقد الإحساس بقيمته، وكان تقديره لذاته متدنياً.

خامساً: تشجيع الطفل: وكما نقول دائماً يجب أن نشجع أقل إجادة، فالثناء وابتسامة الرضا لا تكلف الوالدين شيئا، ولكنها تعد لدى الطفل من أهم عوامل الإثارة، وخاصة أمام أقرانه وأهله.

فإن رسم لوحة - حتى إن كانت سمجة - أشعره أنه رسم لوحة جميلة، ولكنها ربما تحتاج إلى بعض التعديل، إن قام بحل واجباته المدرسية بنفسه أشعره أنه ذو قدرات كبيرة ويمكنه أن يحقق الكثير من الأعمال مستقبلاً، وإن أصبح عضواً في نادٍ أو مركز للموهوبين اعطه إحساسا بأن هذا إنجاز كبير، وهكذا.

وفي الختام، كل ما قلنا لا يعني أبداً أن يبتعد الوالدان عن الطفل ويجلسان يراقبان سلوكه ونموه من غير تدخل أو مشاركة، إنما يحتاج الطفل في الكثير من مراحل عمره الى المشاركة وتعديل سلوكياته حتى يصل إلى مرحلة النضج العقلي والوجداني والعاطفي، ولكن للأسف فنحن معشر الآباء والمعلمين ربما نكون أميين في قراءة أبنائنا والتعامل معهم، وكذلك فنحن أميين في معرفة أنفسنا، فيجب أن نعلم أننا بشر

ولسنا معصومين من ارتكاب الاخطاء، فعلينا أن نتقبل أخطاءنا بروح إيجابية، ونعتذر لأطفالنا إن أخطانا، وأن نبذل المزيد من الجهد في التعامل معهم، كما يجب أن نقرأ ما كتب على جبين الطفل، فكل طفل كتب على جبينه الكلمة «أفهموني»، ولكن ماذا نصنع وكثيرٌ من الآباء أميون في قراءة الأطفال ؟